كلمة أصدقاء الفقيدة

ألقاها الأستاذ الدكتور أحمد طربين

كنت في خلال التدريس الجامعي المبكر في جامعة دمشق، أسمع عن زميلة في التعليم الثانوي هي الأستاذة ليلى الصباغ، وتصلني أخبار إدارتها الحازمة لثانوية البنات الأولى بدمشق، وكيف أنها استطاعت بحكم شخصيتها القوية الجذابة، أن تغرس في قلوب الذين يقدرون هذه المزايا إعجابًا متزايدًا بالجهود المتفانية، التي كانت تجود بها في خلال إدارتها الحكيمة للثانوية، والقيم الحقيقية التي يجب أن تتحلى بها فتاة هذا الوطن، من مثل المعرفة والثقافة والقومية والوحدة.

ولدتْ بدمشق في العام ١٩٢٤م، ونالت شهادتي البكالوريا الأولى والثانية في العام ١٩٤٣، ثم أوفدت مع جماعة من المعلمين والمعلمات إلى جامعة القاهرة (فؤاد الأول) لدراسة التاريخ، ونالت الليسانس في العام ١٩٤٧ م، وعُينت مدرسة في وزارة المعارف، ومدرسة للتاريخ في دار المعلمات، وتولت إدارة ثانوية البنات الأولى، وانتدبت بعد ذلك مفتشة أولى للتاريخ والجغرافيا حتى العام ١٩٦٧. وفي غضون ذلك ألقت الدكتورة ليلى أحاديث عن الثقافة العربية والتاريخ ومقومات الشخصية العربية في الإذاعة السورية في المدة ١٩٥٧ – ١٩٦٠م، إضافة إلى المحاضرات والندوات في الجمعيات الثقافية والعلمية. وقد وجدت فقيدتنا الغالية أن إدارة الثانوية يمكن أن تبلور حول الشخصية والمبادرة الفردية لجيل البنات الكثير من مشاعر الحماس لروح الاستقامة في الأعمال والمنجزات

والأخلاق، التي كانت تنشرها بين فئات البنات الطليعيات اللاتي يتحلَّقن حولها، وسرعان ما يستجيبون لها في كل بادرة من بوادر التعليم والثقافة الذي نذرن له أنفسهن.

وهؤلاء الرائدات هن اللاتي كن ينظمن المحاضرات واللقاءات التربوية والعلمية والثقافية، التي يتطلعن لنوال رضا المديرة الشابة العاملة، التي ترغب في أن تنتظم هذه القيم كافة في بنات الجيل الصاعد من الوطن. وقد دُعيتُ لسماع محاضرة الفقيدة كان عنوانها الأديب لعالمي "طاغور"وكنت أستشعر فيها مدى الاحترام العميق الذي كان يراود هذا الجيل الطالع من وطننا الغالي.

ولا حاجة إلى القول أن الماضي الذي عاشته فقيدتنا يحتاج إلى محاضرة بذاته، نظرًا للغنى الفائض الذي كان يشع من حول شخصيتها النافذة والمؤثرة.

ولكن د. ليلى التي توفي والدها وهي طفلة، كانت تتطلع بقوة نحو المستقبل، نحو مرحلة التعليم الجامعي. ولذا فإنها برغم ثقل مهامها الإدارية و العلمية استطاعت أن تدخر من وقتها وجهدها ما يسمح لها بنوال درجة الماجستير في العام ١٩٦١م، بعنوان "الفتح العثماني لبلاد الشام ومطلع العهد العثماني فيها" من جامعة القاهرة وبعد ذلك انتقلت إلى الدكتوراه فنالتها بدرجة متميزة عن " الجاليات الأوربية في بلاد الشام في القرنين السادس عشر والسابع عشر بالعهد العثماني في العام ١٩٦٦م من الجامعة نفسها، وبذلك تمكنت أن تلبي المشاعر العميقة التي تؤهلها للعبور إلى المرحلة الجامعية، حيث رغبت في الانضمام إلى هيئة التدريس في قسم التاريخ بجامعة دمشق (١٩٧٨م).

عُهد إلى الدكتورة ليلى أن تدرس مواد التاريخ الإسلامي في أقسام التاريخ والجغرافية واللغة العربية ،وكان انطباعي عن تدريسها أنها جمعت نصاعة اللغة العربية وتعمقت في مصادر البحوث ومراجعها دون أن تفارقها نظرتها الفاحصة المُتأنِّية إلى ما

كان يدور حولها. ثم طلب إليها أن تدرس مساق الدولة العثمانية والأقطار العربية وتمكنت من تأليف مرجع جامعي في هذا الموضوع، وعالجت بحوثه بروح العالمة المجربة، كما ألّفت كتابًا عن تاريخ أوربا في العصور الحديثة.

أما المستوى التعليمي والثقافي الذي كانت تمارسه فقيدتنا الغالية، فيلخص في عديد من المؤلفات والكتب ومنها:

- المجتمع العربي السوري في العهد العثماني.
- المرأة في التاريخ العربي (العصر الجاهلي).
- نساء ورجال في الأدب والسياسة.
- من الأدب النسائي المعاصر.

إضافة إلى العديد من البحوث والدراسات التي نشرت في المجلات العربية والأجنبية.

ولن أتحدث الآن إلا عن تجربة فقيدتنا في منهجية البحث التاريخي لأنه الأبرز في حياتها الجامعية المشهورة: حين جرت إعارتي إلى جامعة الكويت في العام ١٩٧٢، رغبتُ إلى قسم التاريخ أن يوافق على أن تتولى الزميلة د. ليلى تدريس مقرر منهجية البحث، وانطلقتُ ثلاث سنوات ثم عدتُ إلى جامعة دمشق، وهنا وجدتُني أقلّب كتابا عن منهجية البحث وضعته الزميلة، وأعطته من ذات وقتها وذات علمها حتى بدا بهذا الشكل المتميز.

والحق أنني دهشت كيف تَسَنَّى للزميلة استكمال محتويات هذا الموضوع النظري والعلمي، وما كان مني إلا التهنئة الخالصة على الجهد المشكور الذي بذلته في هذا الكتاب.

والحق أن د. ليلى وعت كل ما كنت أحاول تدريسه، فزادت عليه واستعانت بعديد من المؤلفات العربية والأجنبية المتصلة به، حتى إنني أعترف اليوم بأنها تجاوزت الخطة التي وضعتها لكتابي، وصار كتابها العُمدة الأصيلة في موضوعه.

لقد أبدعت د. ليلى حين عّرفت منهج البحث التاريخي بأنه مجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها الباحث التاريخي للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإعادة بناء الماضي بكل دقائقه وزواياه، وهذه الطرق قابلة دائمًا للتطور والتكامل مع تطور مجموع المعرفة الإنسانية.

وأشارت د. ليلى إلى الجدل والنقاش القائمين بين المؤرخين والعلماء و الفلاسفة في القرن التاسع عشر، اللذين دارا حول طبيعة المادة التاريخية وطرائق الوصول إلى الحقيقة الثابتة فيها، ورأت، كما رأى أساتذة المنهج، أنه لا سبيل إلى أن يكون التاريخ علمًا تجريبيًا كعلم الفيزياء والكيمياء، لأن مادته هي (الحوادث البشرية)، فلا يمكن تجربة حرب أو تفجير ثورة، والحوادث لا تكرر ذاتها. ورأت بحق أن التاريخ معرفة علمية دقيقة، وأنها ذات منهج أو طريقة في البحث والتقصي- مماثلة لمناهج العلوم الوضعية الأخر ى، وتناولت دراسات المنهج باللغة العربية حتى الربع الثاني من القرن العشرين، وكيف أن بعض المؤرخين العرب ردّوا على المؤرخين الغربيين وواجهوهم بأن العرب سبق لهم أن عرفوا (طرائق النقد الحديثة)في التاريخ قبل أن يعرفها الغربيون بوقت طويل.

وأكدت فقيدتنا أن أول كتاب بُسط فيه إلى حدّ ما منهج البحث التاريخي، كان كتاب المؤرخَيْن الفرنسيين **سينيوبوس ولانفلوا** في أواخر القرن التاسع عشر- (١٨٩٨م) باسم (مدخل للدراسات التاريخية) وترجم جزء منه إلى اللغة العربية. ومعلوم أن كتاب د. أسد رستم وهو رئيس قسم التاريخ بجامعة بيروت الأمريكية، في كتابه المنشور عام ١٩٣٩ م في بيروت باسم (مصطلح التاريخ)ذكر أنه استمد أسس بحثه من علماء الحديث، الذين كان لهم قصب السبق في تحري الحقائق والأحاديث، وفي نقد النصوص نقدًا دقيقًا لاستخلاص الأحاديث الصحيحة من الأحاديث الموضوعة. واقتدى بهؤلاء العلماء فيما بعد إخباريو العرب ومؤرخوهم.

ورأت الدكتورة ليلى أن المؤرخين العرب أدركوا كثيرًا من الأساسيات العلمية لمنهج البحث التاريخي بمضمونها الحديث وكتبوا فيها، ونموذجهم الأكبر(ابن خلدون) المتوفَّى عام ١٤٠٦ م بما طرحه في مقدمته عن التاريخ وطريقة البحث فيه، إضافة إلى الكافيه جي والسخاوي والسيوطي والفاسي، وإضافة إلى الغزالي (ت ١١١١م)، وابن الصلاح (ت ١٢٤٣م) وابن تيمية (ت ١٣٢٨م) والذهبي (ت١٣٤٨م). وأكدت د. ليلى أن ثمة مراجع أجنبية عديدة صدرت حول الموضوع، ولابدّ للباحث التاريخي من متابعتها ليعرف آخر ما توصل إليه الفكر المتطور في هذا الموضوع.

وينبغي أن نلفت النظر إلى أن مؤلفة كتاب المنهج لم تهمل قضايا ومشكلات يعيشها بعض المفكرين من جماهير الشعب في سورية. ومعلوم أن ابن خلدون (مثلاً) نظر إلى المجتمع البشري كعضوية تحيا وتنمو ثم تموت. ويدرك قارئ (مقدمة ابن خلدون) أنه تناول وحدة الحياة الإنسانية وتطورها واستمراريتها، وسبق بذلك (ماركس) في الحديث عن جدلية التاريخ وديناميكيته، ومفهومه الاقتصادي عنه. وأن الاجتماع الإنساني يتطور من البداوة إلى الحضارة، وأن الحضارات تتعاقب عليها ثلاثة أطوار هي: بداوة، ثم حضر، ثم انحلال اقتصادي وخلقي.

وأوجزت فقيدتنا آرائها في النظرية الماركسية مع المؤرخ ولش وغيره من المؤرخين بل والاقتصاديين، عن (أحادية التفسير التاريخي)، وكيف أنها لا تصلح لتعليل جميع أعمال الإنسان وفعالياته الحضارية، واقتبست د. ليلى عن الأستاذ كول cole، الذي درس المادية، بدقة وتعاطف كبيرين، قوله:" من السهل أن نتبع التشابه الكبير بين الهياكل الاقتصادية وتنظيمها السياسي وأجهزتها الاجتماعية.. " إلا أنه من الخطر أن نؤكد هذا إلى حدّ مفرط في البعد. وليست الحال قط أن المجتمعات التي في مستوى واحد من ناحية أسلوب الإنتاج، يجب أن يكون لها حتمًا نفس الأنظمة أو نفس الأشكال الاجتماعية

للعائلة، والعلاقات الجماعية، والمنظمات السياسية والدينية، أو الأفكار الخاصة بالقيم والأخلاق. فلقد أظهرت بحوث علم الإنسان (الأثروبولوجيا) أشكالًا حضارية مختلفة جداً، لا يمكن قط أن تفسر تفسيرًا اقتصاديًا محضاً. إن أقصى ما يثبته هذا التشابه إنما هو مجرد الاقتناع بأن الأنظمة الاجتماعية تتأثر بالظروف الاقتصادية، لا أنها تتعين بها وحدها. " إن الأساس الاقتصادي للمجتمع **عامل واحد** فقط من عوامل تصوير الشكل العام للحضارة حتى لو كان أهم عامل".[1]

جعلت الدكتورة ليلى التاريخ لا ينفصل عن المؤرخ، فهو مكتوب بجهد المؤرخ ويُبْرِز صفاته الفكرية والخلقية، ولكن يجب أن يضاف إلى ثقافة المؤرخ ذكاؤه ومقدرته على التخيل، وسلامة المحاكمة لديه، والفكر النقدي السليم لاكتشاف الزيف والخطأ والكذب، وهذا الفكر النقدي لا يوجَّه إلى المصادر والمراجع فقط، وإنما أيضًا إلى المؤرخ نفسه، وعلى المؤرخ أن يمتحن قدراته الذاتية ومدى ثقافته، وأن يُسائل نفسه هل طرح المشكلة الحقيقيّة، وهل كان عادلًا وصادقًا في نقدها ؟ على المؤرخ أن يكون منفتحًا على كل العواطف والتجارب الإنسانية، وعليه ألاّ تأسره أفكاره، وعليه ألاّ ينتظر من جهده المضني منفعة مادية، بل أن يتابع سيره مهما كانت الظروف بُغية إعادة قصة الإنسان، نابضة بالحياة كما عاشها إنسان الماضي.

وبعد، إن ما قدمته د. ليلى الصباغ إلى منهجية البحث التاريخي، يشكل نبراسًا متألقًا ينير السبيل أمام العاملين في مجالات التاريخ، وإن منهجية البحث التي بسطتها في كتابها تتطور على الدوام، إضافةً إلى جهود جميع رواد المعرفة التي تساعد حاملها على الوصول إلى الحقيقة، فالتعاون بين المؤرخ ومختلف العاملين في شتى حقول المعرفة واجب حتمي، إذا صمّم الجميع على بلوغ الحقيقة الخالصة.

---

(1) P. G. D. H Cole , The meaning of Marxism P. 57

إن جامعة دمشق يحق لها أن تفخر بهذه الدّرة القيمة العلمية التي أبدعتها المؤلفة، والتي يصح أن تعمّم وينطلق منها لتحقيق الأهداف التي يتطلع المؤرخ وسائر طبقات الشعب إليها، والتي تعين جهوده المضنية في عمله الخاص مع الماضي وهي (الانفتاح على الغير).

رحم الله فقيدتنا الغالية د. ليلى التي صبرت طويلًا على تقنيّات البحث المرهقة، لتخرج علينا بهذه الدراسة الفريدة.

والسلام عليكم